ندوة "الجمعية الثقافية المصرية/الأميركية" عن "ثورة ٢٣ يوليو"

(السبت ٢١ تموز/يوليو – الساعة الخامسة مساءً – في قاعة "معهد كارنيجي" بواشنطن)

أقامت "الجمعية الثقافية المصرية الأميركية" – EACA- (بالتعاون مع "مركز الحوار العربي") أمسية خاصة عن مناسبة "**ثورة ٢٣ يوليو**" تضمنت عرضاً من الدكتور رشدي سعيد عن تجربته كسياسي مصري مع ثورة ٢٣ يوليو ثم تعليقات عن المناسبة من صادق سليمان وصبحي غندور.

تعليق من الأستاذ صادق سليمان

مـــن توفيق المرء في هذه الحياة أن يخدم وطنه، ويكون التوفيق في أوفقه عندما يؤدي المرء خدمة جديـــرة في ظرف عصيب. أخونا وصديقنا العزيز دكتور رشدي سعيد حظي بمثل هذا التوفيق، فأعطى بـــإخلاص أحســـن ما لديه: على ذلك نغبطه، نحبه، نكبره، وندعوا له بكل خير. وليكون لبعضنا بعض العـــزاء، لعلي أردد مع جون ملتون في ملحمته الشهيرة Paradise Lost قوله: هو أيضا يخدم من يقف منتظرا دوره في أداء الخدمة.He also serves who stands and waits

ثـــورة ٢٣ يوليو، التي نحتفي بذكراها، وحدثنا عنها دكتور رشدي كشاهد ومشارك، أتت رائدة في طبيعتها، جامعة في أهدافها، طموحة، جريئة. لم تكن انقلاب قصر، بل تحولا عن ذهنية قصر إلى مـــنطق شـــارع. فـــي الداخل سعت الثورة للإصلاح، في الخارج للتحرر، بين العرب للتصامن، وعلى الصعيد العالمي آزرت استقلال الشعوب.

كان بناء السد العالي مفتاح الإصلاح الزراعي الذي بدوره كان مطلب تنمية وطنية عادلة: من ثم كـــان تأمـــيم القناة لتأمين السد. لم يكن العائد المرتقب من التأميم لأجل إثراء قلة على حساب كثرة. لم يكن، كما غدا تأميم النفط العربي فيما بعد، مدخلا إلى حياة ترف: ولو كان كذلك، لما أزعج الصهاينة والمستعمرين.

وعـــندما أفاق العرب على صوت مصر الثورة وهي تُؤمم القناة، تردّ العدوان الثلاثي، تبنى السد العالي، تزيل الإقطاع، تُساهم في بناء حركة عدم الأنحياز، تُحبط محاولات توريط العرب في أحلاف عسكرية، تُؤازر ثورة الجزائر، تُناهض الأستعمار، تنتصر لقضايا الشعوب المستضعفة – أفاقوا على ثورة وطنية، قومية، إنسانية، جامعة.

في ذكرى ثورة ٢٣ يوليو لا يُغفل ذكر قائد الثورة: جمال عبد الناصر: ابن مصر الذي أضحى ابن العـــروبة جمعاء. كان يشعرنا – نحن خارج مصر من المحيط إلى الخليج – أننا جزء من الثورة، أن

خطابــه هــو لـــنا بمثل ما هو لأهل مصر. كان يؤكد لنا، بمنطق أخوة في العروبة، وحدة الانتماء لحضارة عظمى، لأمة خيرة، لوطن كبير.

إثـــر ثـــورة ٢٣ يوليو استقلت أقطار عربية، وانتفضت أخرى تبتغي التحرر والإصلاح. في ذلك، كان دور مصر الثورة دورا محفزا، بل مُمكّنا في الأساس. بمثل ذلك كان دور مصر في الضغط لأجل تأميم النفط العربي بسلاح وحدة الصف. بل أكاد أجزم أن لولا المد القومي المتدفق من القاهرة، المتآزر مع حركة عدم الانحياز التي كانت لمصر فيها أيضا ريادة مشهودة، لما تيسر الاستقلال وتأمم النفط على النحو الذي حصل، ولما شهدت أسعار النفط ما شهدت بعد ذلك من صعود.

لكن، لأن الثورة لم تُركّز على تنظيم العمل السياسي ديمقراطيا في الداخل، ولأنها لم تمارس اجتهادا مؤسسيا يُرشّد التعامل مع الخارج، بالقدر الذي كان يجب أن تفعل في الأمرين، فإنها سرعان ما وقعت، وأوقعــت الوطـــن والأمة، في هزيمة كبرى هزت الثقة بالنفس، وخلفت آثار عدوان لا تزال مصدر معاناة مريرة لنا اليوم. ومع أن القائد عاد فكرس كل جهده لإعادة البناء على نحو أصح، ونجح في ذلك لحـــد يذكر، إلا أنه لم يستطع أن يستمر، فلقد أنهكه عمل متواصل، وأضنى قلبه غم انكسار كان يمكن أن يُجتنـــب. ثم داهمه أيلول الأسود لينتزع منه آخر رمق من قواه. حينها استسهله الموت فعاجله وهو لا يزال، لآخر سويعات من حياته، يكدح في جبر الكسر ولم الشمل وبناء القدرات من جديد.

العـــبرة التـــي أستخلصـــها مـــن خبرة ثورة ٢٣ يوليو، إذن، هي أن شأن الأمة أولى أن يوكل في مؤسســـات دســـتورية عاملة باجتهاد جماعي تحت مساءلة جماعية من أن يترك بيد قائد فرد، مهما بلغ إخلاصـــه، علت همته، وسمت صفاته. تلك عبرة نسوقها مُن ماض عاثر لنتبصر في صياغة حاضر رشيد.

دعني أفصح عما أراها أمورا تصنع لنا حاضرا رشيدا ومستقبلا أرشد: أمورا أتمناها لمصر لأجل مصر، وأتمناها من مصر لأجل العروبة، وإذن فأتمناها في الخبرة العربية على الإطلاق:

*أتمـــنى لمصر دستورية أمثل: نظاما ديمقراطيا وافيا يتيح تجدد القيادة تواكبا مع تقدم العصر. بذلك لا تُحجب الكفاءات، بل تُستظهر أكفؤها لتتوالى على إدارة الشأن الوطني. في خبرة الأمم الناجحة، التعامل الأنجع مع مشاكل العصر، واستنباط أوفق الحلول، يتطلب تجدد القيادات ديمقراطيا باطراد.

*أتمـــنى أن تعمـــل مصـــر بجهـــد أكبر، ليس على صعيد الحكومات فقط، بل أيضا عبر التفاعل الإيجابي مع المنظمات غير الحكومية، لأجل إنماء التعاون والتضامن بين العرب في شتى المجالات.

*أتمنى أن تكثف مصر جهدها في اقتباس علوم العصر: أن تدفع بجيلها الصاعد نحو طلب المعرفة: أن تهـتم بالنبوغ بين أبنائها وبناتها، أن تستظهر المواهب وترعاها بأقصى الإمكانيات. إن أعظم ثروة تمتلكها الأمم هي ثروة العقول: ثروة تكمن في سواد الشعب. بتعداد يشارف ٧٠ مليون، لا شك أن لمصر رصيد نبوغ ينتظر أن يظهر ويُثمر.

*وأتمـنى أن تُعـنى مصر بشكل وثيق بالقضايا الأنسانية: حقوقُ الإنسان، ديمقراطية الحكم، سيادة القانون، عدالة الأرزاق، شجب التمييز على أساس نسب أو دين ضمن وطن مشترك....أتمنى أن يعلو صوت مصر صوتا عربيا حضاريا يشارك العالم هذه الاهتمامات.

قلـت إننـي أتمنى هذه الأمور لمصر لأجل مصر، ومن مصر لأجل العروبة. ذلك لأن ما تحققه مصـر مـن خير يسرى خيرا للعروبة، وحيثما تقصر يمسنا التقصير. لذا ما نصحت هو من قبيل ما نصح أحمد شوقي: " نصحت ونحن مختلفون دارا، ولكن كلنا في الهم شرق"... وأظن لو أسعفته القافية لقال شوقي: ولكن كلنا في الهم عرب.

ملاحظة أخيرة بين قوسين: (٢٣ يوليو، كما هو عيد لمصر، هو عيد لعمان، فعهدنا الجديد أيضا بزغ في مثل هذا اليوم، من عام ١٩٧٠.) شكرا.

عن ثورة ٢٣ يوليو: القيادة والفكر والأداة

(تعليق من صبحي غندور)*

في كلّ سنةٍ تمرّ على مناسبة ذكرى "ثورة ٢٣ يوليو" في مصر، يحضرُني قول جمال عبد الناصر:

"إنّ قـوّة الإرادة الـثورية لدى الشعب المصري تظهر في أبعادها الحقيقية الهائلة إذا ما ذكرنا أنّ هذا الشعب البطل بدأ زحفـه الثوري من غير تنظيم ثوري سياسي يواجه مشاكل المعركة، كذلك فإنّ هذا الزحف الثوري بدأ من غير نظرية كاملـة للتغيـير الـثوري. إنّ إرادة الـثورة في تلك الظروف الحافلة لم تكن تملك من دليلٍ للعمل غير المبادئ الستّة المشهورة".

هـذا القول الذي ورد في الباب الأوّل من "الميثاق الوطني" الذي قدّمه جمال عبد الناصر للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية في أيار/مايو ١٩٦٢ يضع الإطار الصحيح لكيفية رؤية "ثورة ٢٣ يوليو" وإنجازاتها ولتطوّر مسارها في مصر وعلى المستوى العربي عموماً.

فحيـنما تقـوم ثـورة بعظمة "ثورة يوليو" عام ١٩٥٢، وتحدث تغييراتٍ جذريةً في المجتمع المصري ونظامه السياسي والاقتصـادي والعلاقـات الاجتماعـية بيـن أبنائه، وتكون أيضاً ثورة استقلالٍ وطني ضدّ احتلالٍ أجنبيٍّ مهيمن لعقودٍ طويلة (الاحـتلال البريطاني لمصر)، ثمّ تكون أيضاً قاعدة دعمٍ لحركات تحرّرٍ وطني في عموم أفريقيا وآسيا، ثمّ تكون كذلك مركز الدعوة والعمل لتوحيد البلاد العربية ولبناء سياسة عدم الانحياز ورفض الأحلاف الدولية في زمن صراعات الدول الكبرى وقمّة الحـرب الباردة بين الشرق والغرب .. حينما تكون "ثورة يوليو" ذلك كلّه وأكثر، لكن دون "تنظيم سياسي ثوري" ودون "نظرية كاملة للتغيير الثوري" -كما قال ناصر في "الميثاق الوطني"- فإنّ هذا شهادة كبرى للثورة ولمصر ولقائد هذه الثورة نفسه جمال عبد الناصر.

فإنجازات "ثورة يوليو" ومسارها التاريخي أكبر بكثير من حجم أداة التغيير العسكرية التي بدأت الثورة من خلالها، وهي مجموعـة "الضـباط الأحرار" في الجيش المصري. كذلك، فإنّ الأهداف التي عملت من أجلها الثورة طوال عقدين من الزمن تقريـباً، إي إلـى حيـن وفـاة جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠، كانت أيضاً أوسع وأشمل بكثير من "المبادئ الستّة" التي أعلنها "الضـباط الأحرار" عام ١٩٥٢. فهذه "المبادئ" جميعها كانت "مصرية" وتتعامل مع القضاء على الاستعمار البريطاني لمصر وتحكّـم الإقطـاع والاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم في مصر، وتدعو إلى إقامة عدالة اجتماعية وبناء جيش مصري قوي وحياةٍ ديمقراطيةٍ سليمة.

وإذا كـان واضـحاً في هذه المبادئ الستة كيفية تحقيق المرفوض (أي الاحتلال وتحكّم الإقطاع والاحتكار)، فإنّ تحقيق المطلـوب (أي إرسـاء العدالـة الاجتماعية والديمقراطية السليمة) لم يكن واضحاً بحكم غياب "النظرية السياسية الشاملة" التي تحـدّث عـنها ناصر في "الميثاق الوطني". أيضا، لم تكن هناك رؤية فكرية مشتركة لهذه المسائل بين أعضاء "حركة الضباط الأحرار"، حتى في الحدّ الأدنى من المفاهيم وتعريف المصطلحات، فكيف بالأمور التي لم تكن واردة في "المبادئ الستة" أي بما يـتعلّق بـدور مصر العربي وتأثيرات الثورة عربياً ودولياً وكيفية التعامل مع صراعات القوى الكبرى ومع التحدي الصهيوني

الــذي فــرض نفسه على الأرض العربية في وقتٍ متزامنٍ مع انطلاقة ثورة يوليو، حيث **شكّل هذا التحدي الصهيوني المتمثّل** بوجود دولة إسرائيل (هذا الوجود المدعوم والمستخدَم من قبل الغرب) أبرز ما واجهته ثورة يوليو **من قوّة إعاقةٍ عرقلت دورها** الخارجي وإنجازاتها الداخلية.

أهمّــية هــذه المسألة المتمثّلة في ضيق أفق أداة الثورة (الضباط الأحرار) ومحدودية **(المبادئ الستّة) مقابل سعة تأثير** القـيادة الناصرية وشمولية حركتها وأهدافها لعموم المنطقة العربية ودول العالم الثالث، **أنّها تفسّر حجم الانتكاسات التي حدثت** رغــم عظمة الإنجازات، وأنّها تبيّن كيف أنّ الثورة كانت تيّاراً شعبياً خلف قائدٍ ثوريٍّ **مخلص لكن دون أدواتٍ سليمة تربط ما** بين القائد وجماهيره، وبين الأهداف الكبرى والتطبيق العملي أحياناً.

ورغــم هــذه الســلبية الهامّة التي رافقت "ثورة ٢٣ يوليو" في مجاليْ الفكر والإداة، فإنّ ما صنعته الثورة داخل مصر وخارجها – تحت القيادة الناصرية– كان أكبر من حجم السلبيات والانتكاسات.

وإذا كانــت الإنجــازات الماديــة للثورة في داخل مصر تتحدّث عن نفسها في المجالات كافّة، الاقتصادية والاجتماعية والــتربوية ..الخ، فإنّ الإنجازات الفكرية والخلاصات السياسية لهذه الثورة، خاصّةً في العقد الثاني من عمر الثورة، هي التي بحاجة إلى التأكيد عليها بمناسبةٍ أو بغير مناسبة.

فالقيادة الناصرية لثورة ٢٣ يوليو طرحت مجموعة أهدافٍ فكرية عامّة وعدداً **من الغايات الاستراتيجية المحدّدة، إضافة** إلى جملة مبادئ حول أساليب العمل الممكنة لخدمة هذه الغايات الاستراتيجية **والأهداف الفكرية العامّة.**

وقــد ظهرت هذه الأمور الفكرية والاستراتيجية والتكتيكية في أكثر من فترة خلال مراحل **تطوّر الثورة، لكن نضوجها** وتكاملها ظهر واضحاً في السنوات الثلاث الأخيرة من حياة عبد الناصر، أي ما بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٠.

فاستناداً إلى مجموعة خطب عبد الناصر، وإلى نصوص "الميثاق الوطني" وتقريره، يمكن تلخيص الأبعاد الفكرية لثورة "٢٣ يوليو" الناصرية بما يلي:

- رفض العنف الدموي كوسيلةٍ للتغيير الاجتماعي والسياسي في الوطن أو للعمل الوحدوي والقومي.

- الاستناد إلى العمق الحضاري الإسلامي لمصر وللأمّة العربية انطلاقاً من الإيمان بالله ورسله ورسالاته **السماوية،** والتركيز على أهمّية دور الدين في بناء مجتمعٍ قائم على القيم والمبادئ الروحية والأخلاقية.

- الدعوة إلى الحرية، بمفهومها الشامل لحرية الوطن ولحرية المواطن، وبأنّ المواطنة الحرّة لا تتحقّق في بلدٍ مستعبَد أو محــتّل أو مســيطَر عليه من الخارج. كذلك، فإنّ التحرر من الاحتلال لا يكفي دون ضمانات الحرية للمواطن، وهي تكون على وجهين:

  - **الوجه السياسي:** الذي يتطلّب بناء مجتمعٍ ديمقراطي سليم تتحقّق فيه المشاركة الشعبية في الحكم، وتتوفر فيه حرية الفكر والمعتقد والتعبير، وتسود فيه الرقابة الشعبية وسلطة القضاء.
  - **الوجه الاجتماعي:** الذي يتطلّب بناء عدالةٍ اجتماعيةٍ تقوم على تعزيز الإنتاج الوطني وتوفير فرص العمل وكسر احتكار التعليم والاقتصاد والتجارة.

- المســاواة بيــن جميع المواطنين بغضّ النظر عن خصوصياتهم الدينية أو العرقية، **والعمل لتعزيز الوحدة الوطنية** الشــعبية التــي بدونهــا يــنهار المجــتمع ولا تتحقّق الحرية السياسية أو العدالة الاجتماعية **أو التحرّر من الهيمنة** الخارجية.

- اعــتماد سياسة عدم الانحياز لأيٍّ من القوى الكبرى ورفض الارتباط بأحلافٍ عسكرية أو سياسية تقيّد الوطن ولا تحميه، تنزع إرادته الوطنية المستقلّة ولا تحقّق أمنه الوطني.

- مفهــوم الانتماء المتعدّد للوطن ضمن الهويّة الواحدة له. فمصر تنتمي إلى دوائرَ أفريقية وإسلامية ومتوسطيّة، لكن مصر – مثلها مثل أيِّ بلدٍ عربيٍّ آخر– ذات هويّة عربية وتشترك في الانتماء مع سائر البلاد العربية الأخرى إلى أمّةٍ عربيةٍ ذات ثقافةٍ واحدةٍ ومضمونٍ حضاريٍّ مشترك.

- إنّ الطــريق إلــى التكامل العربي أو الاتحاد بين البلدان العربية لا يتحقّق من خلال الفرض أو القوّة بل (كما قال ناصر) "إنّ الإجماع العربي في كلّ بلدٍ عربي على الوحدة هو الطريق إلى الوحدة" .. وقال ناصر أيضاً في "الميثاق الوطني":

"طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية .. ثمّ العمل السياسي من أجل تقريب يوم هذه الوحدة، ثمّ الإجماع على قبولها تتويجاً للدعوة وللعمل معاً".

وقال أيضاً في الميثاق:
"إنّ اشتراط الدعوة السلمية واشتراط الإجماع الشعبي ليس مجرّد تمسك بأسلوبٍ مثالي في العمل الوطني، وإنّما هو فوق ذلك، ومعه، ضرورة لازمة للحفاظ على الوحدة الوطنية للشعوب العربية".

***

أمّا على صعيد مواجهة التحدّي الصهيوني، فقد وضعت قيادة "ثورة يوليو" منهاجاً واضحاً لهذه المواجهة، خاصّةً بعد حربِ عام ٦٧، يقوم على:

١- بناء جبهةٍ داخليةٍ متينة لا تستنزفها صراعات طائفية أو عرقية ولا تلهيها معارك فئوية ثانوية عن المعركة الرئيسة ضدّ العدوّ الصهيوني، ومن خلال إعدادٍ للوطن عسكرياً واقتصادياً بشكلٍ يتناسب ومستلزمات الصراع المفتوح مع العدوّ.

٢- وضع أهدافٍ سياسيةٍ مرحلية لا تقبل التنازلات أو التفريط بحقوق الوطن والأمّة معاً، ورفض الحلول المنفردة أو غير العادلة أو غير الشاملة لكلّ الجبهات العربية مع إسرائيل.

٣- العمل وفْقَ مقولة **"ما أُخِذ بالقوّة لا يُستردّ بغير القوّة"** وأنّ العمل في الساحات الدبلوماسية الدولية لا يجب أن يعيق الاستعدادات الكاملة لحربٍ عسكريةٍ تحرّر الأرض وتعيد الحقّ المغتصَب.

٤- وقف الصراعات العربية/العربية، وبناء تضامنٍ عربي فعّال يضع الخطوط الحمراء لمنع انزلاق أيّ طرفٍ عربي في تسويةٍ ناقصةٍ ومنفردة، كما يؤمّن هذا التضامن العربي الدعم السياسي والمالي والعسكري اللازم في معارك المواجهة مع العدوّ الإسرائيلي.

***

هــذه باختصار مجموعة خلاصات فكرية وسياسية أراها في ثورة ٢٣ يوليو، خاصّة في حقبة نضوجها بعد حرب عام ١٩٦٧.

لكن أين هي مصر الآن وأين هي المنطقة العربية من هذه الخلاصات الفكرية والمواقف الاستراتيجية؟

هـنا يعـود الأمر بنا إلى ما قاله جمال عبد الناصر عن كيف أنّ الثورة بدأت دون "تنظيم سياسي ثوري" ودون "نظرية سياسية ثورية"، وهنا أجد تفسيراً أيضاً لما وصلت إليه مصر والأمّة العربية بعد وفاة جمال عبد الناصر، حيث فقدت الجماهير العربـية اتصـالها مـع القـائد بوفاته، ولم تكن هناك بعده أداة سياسية سليمة تحفظ للجماهير دورها السليم في العمل والرقابة والتغيير. أيضاً، مع غياب ناصر، وغياب الأداة السياسية السليمة، أصبح سهلاً الانحراف عن المبادئ، والتنازل عن المنطلقات، والتراجع عن الأهداف.

"ثورة ٢٣ يوليو" كانت من حيث الموقع الجغرافي في بلدٍ يتوسّط الأمّة العربية ويربط مغربها بمشرقها، وكانت من حيث الموقع القارّي صلة وصلٍ بين دول العالم الثالث في أفريقيا وآسيا، وكانت من حيث الموقع الزمني في منتصف القرن العشرين الـذي شـهد متغـيّراتٍ واكتشافاتٍ كثيرةً في العالم وحروباً وأسلحةً لم تعرف البشرية مثلها من قبل، كما شهد القرن العشرين صعود وأفول ثوراتٍ كبرى وعقائد وتكتّلات ومعسكرات .. وشهد أيضاً اغتصاب أوطانٍ واصطناع دويلات ..

كذلـك، فـإنّ ثورة ٢٣ يوليو، من حيث الموقع الفكري والسياسي، كانت حالاً ثالثةً تختلف عن الشيوعية والرأسمالية، قطبـيْ العصـر الذي تفجّرت فيه الثورة، فقادت "ثورة ٢٣ يوليو" ثورات العالم الثالث من أجل التحرّر من كافة أنواع الهيمنة وبناء الاستقلال الوطني ورفض التبعية الدولية.

أمّـا الـيوم، ونحن في مطلع القرن الحادي والعشرين، فإنّ مصر تغيّرت، والمنطقة العربية تغيّرت، والعالم بأسره شهد ويشـهد متغـيّراتٍ جذريـة في عموم المجالات .. لكن يبقى لمصر دورها الطليعي في أحداث المنطقة العربية إيجاباً أو سلباً، وتبقى الأمّة العربية (التي هي أمّة وسطية في مضمون حضارتها) بحاجةٍ أكثر من أيّ وقتٍ مضى إلى مشروع فكري نهضوي وإصلاحي معاً، إلاّ أنّ هذا المشروع يتطلّب أولاً إصلاحاً ونهضة في حال الأدوات السياسية العربية، سواء أكانت في الحكم أم في المعارضة أم في الخارج.

إنّ العطب الآن هو في الفكر والأدوات معاً، والأمل في إصلاحهما معاً، فظروف قيام ثورة ٢٣ يوليو وقيادتها المخلصة النادرة، أمران لن يتكرّرا في المدى القريب، وإن حصل ذلك، فلن يكون النجاح ممكناً دون "نظرية سياسية سليمة" ودون "تنظيم سياسي سليم" !!

---

* مدير "مركز الحوار العربي" في واشنطن
alhewar@alhewar.com